لكي تعيش . . . ! !

للأستاذ م دراج

أليس عجيباً أن يتعارض المنطق مع القانون ؟ إن منطق الحياة ليقول : الحياة تبرر نفسها ! ولكن القانون لا يخضع دائماً لمثل هذا القول ! « الحياة تبرر نفسها » منطق عجيب حقاً ينسف دعائم الجريمة والعقاب ، ومع ذلك فالقانون باق ، وسنة الحياة لا تتغير ! أجل ... إن القانون يثور على المجرمين ، ولكنه لا يفهم لماذا أجرموا ؟ يصليهم العذاب في أركان مظلمة يسميها « دور التأديب والإصلاح » ! ولكن هذه الدور تزداد دائماً ، وتتسع ، وتكتظ ، ومع ذلك يصر على أنها ليست للأفساد ، لسبب الانحطاط في طبقة ما من الأمة ، ويتعلل بتدهور أخلاقها ، ثم ينبني التفسير الصحيح لهذا التدهور ، وكيف تسببت أعراضه وتفاقمت ، لأنه لا يريد أن يقول : إنه الجوع أو الجهل ، أو الحرمان أو الفقر بمعنى أقرب وأوضح ...

هذه هي القصة ، قصة المرأة التي خلقت التاريخ ، وبقيت المحور الذي تدور عليه حوادث العالم حتى اليوم ... رأيتها بالأمس تسير الهوينا إلى جانب الطريق : تتصفح الوجوه صفحة صفحة بعينين لهما منطق مفضوح ! لقد طال سيرها على غير هدى ، حتى كاد التعب يهوي بفرعها إلى الأرض ، فأسندت ظهرها إلى جذع شجرة عتيقة كمن يريد انتظار شيء معلوم ... فوقفت على بعد منها ، لأني لمحت على وجهها سمة التضليل واضحة ، ولم يخف عني أنها تنتظر المجهول ... المجهول الذي يقودها من هذه السوق التي أقامتها مدنية القرن العشرين لتجارة الرق المشروعة ، فما ذا رأيت ؟ رأيت قطعة من جسم الإنسانية ، تتمرغ في الوحل ، والناس يطربون لهذا المنظر البشع ، ويتهافتون على مشاهدته ، فبعضهم من ذوي « الرؤوس البيضاء » كانوا يرمقونها بنظرة التهكم والسخرية ؛ أما البعض الآخر فمن ذوي الشعور اللامعة والحواجب الزججة ، فإنهم يسارعونها النظرات أولاً ثم يتقشفون في مظهر التدين ، ثم يهبطون بأنظارهم حتى قدميها ، وكثيراً ما كان بعضهم يتعمد المرور من ورائها ليطمئن إلى حكمه الأخير ! وهم لا يكفون عن اللف والدوران ، وكأنهم جيوش من النحل تطوف حول زهرة من أزهار الربيع ... إن منظرها على هذا الوضع ليضايقني ويثير فيَّ غيرة لا أعرف مصدرها ، لعلها الثورة على الإنسانة الذليلة ، أو لعلها الأنانية التي لا يخلو من بعضها كائن بشرى ... ووجدتني مضطراً إلى الابتعاد ، فقد كان يؤلمني أن أكون أحد المتحفزين للدخول في صفقة كهذه . ولم أكد أبتعد خطوتين ، حتى أعود فألقي عليها نظرة أخيرة ، فأجد سيارة ضخمة لها طنين العظمة والكبرياء تتباطأ رويداً رويداً ، ثم تقف عن الحركة ، ويتحرك بابها ، ولا ينزل منه أحد ... لقد حجبت عني هذه السيارة منظر الفتاة ، فقفزت كذلك خطوتين إلى الأمام حتى وضح لي أنها تحدق في داخلها ، ثم تتقدم بعض الشيء ، وخيل إليّ أنها تسأل عن الثمن ... وأخيراً تقفز إلى جوار السائق وتندفع السيارة بصيدها الحرام ، مخلفة وراءها عثاراً مشيماً بدخان العظمة والكبرياء ...

ويضيق صدري ، فأمشي مسلوب العاطفة والفكر معاً . أمشي أنا أيضاً على غير هدى ، هنا وهناك لا ألوي على شيء . وفجأة أسمع طنيناً يعيد إلى صوابي ، فأدرك أن حياتي كانت معرضة للخطر ، كنت مهدداً بالفناء من هذه السيارة الماجنة ، فقد وقفت مني على بعد أمتار . وألقت صيدها المذبوح إلى الطريق! وعلى غير وعي مني أتبع خطواتها ، فهي تسير في نفس الاتجاه الذي يصل بي إلى مسكني . ولكني لا آبه بالوقت ، ولا بحاجتي إلى الراحة ، وأتابع السير وراءها حتى تعرج على دكانة تبيع « سمكا مشوياً » ثم إلى بائع الخبز فتبتاع منه حاجتها ... وتواصل السير وأنا أتبعها ... لقد اندفعت اندفاعاً غريباً لأعرف شيئاً عن قصتها . سلكت شوارع مظلمة ، وحارات ، ودروباً ما كنت أتصور أن القاهرة ، هذه المدينة الجميلة الضاحكة ... ذات القصور والفنادق والملاهي والأحياء التي تضارع أرقى العواصم في الغرب ، هذه المدينة التي يسمونها كذباً وتضليلاً عروس الشرق ، تضم هذه البالوعات القذرة ، تلك التي لا تجد لها مثيلاً بين زنوج أفريقيا أو بلاد نيام نيام أو أي أرض شئت

وأخيراً أراها تحيي أمها العجوز ، وتنحدر إلى باب مسكنها الغائر في بطن الجبل . فأتذكر المرأة التي أمر بها كل يوم وهي جالسة إلى صندوق القمامة تفتش فيه جاهدة عن شيء يؤكل ، والرجل الذي تسلل إلى فضلات طعام إحدى الفرق المعسكرة ، فأرداه الجندي صريعاً بالرصاص . والفلاح الذي يأكل الحشائش من الأرض كالحيوان . والعامل الذي يقسره الجوع أن يسرق

قطعة من « العجوة » ليبلع بها رغيفه ... كل أولاء كهذه المرأة هم فى العذر والحاجة سواء . لقد فقدوا كل إحساس لأنهم جياع فما يهمهم عرف ولا قانون . وهل فى عداد القوانين التى تنظم حياة المجتمع قانون واحد يجنب الفقير عواقب الشطط !! آه ... لقد تذكرت ! هناك السجون ! وهل رأيت فى السجون إلا فقيراً أو محروماً أو مطروداً ؟ هــذه السجون بنيت لفريق واحد من الناس ، وليس هذا الفريق من الأغنياء !

وعدت إلى دارى مهموم القلب ، يحتـدم بينى وبين نفسى عراك عنيف : إنها ساقطة ... بغى ... عاهرة تفسد فى الأرض . أثور ، وهى تهدئنى : « ألا تدرى أن صفقة كهذه لا غبار عليها . ما دام الحر والجوع هما وسيطاها ! إن الحر والجوع كليهما كأس يشمل شاربها . فكل كأس من الحر لها رصيد من العرق أو الدموع ! فلم لا ترى مثل هذا يحدث على الشاطئ الغربى من النيل . . . حيث تقوم القصور الشاهقة مطلة على الأكواخ والكهوف . لا محل للأسطورة القديمة التى كانوا يسمونها الفضائل ، والشرف ، والكرامة ، والمروءة ! كل هــذه أكاذيب قد عفت منــذ زمن بعيــد . إن الإنسانية تتقدم ، وتتطور ، دائماً ، دائماً ، حتى فى تجارة الرقيق ، ولكنها تجارة منظمة . أجل تجارة منظمة تتفق وأسلوب القرن العشرين ...

لا ياصاحبى ، إنهــا إنسانة لا بد لها من القوت لتعيش . ومن يدرى ؟ ربما أعيتها الحيل فى البحث عنه ، أذلتها الحاجة . والجواب بغير نحن ليس من طبيعة هذا العصر ، ولا من تعاليمه . فما الكرامة ، وما الشرف ، وما العرض ، أمام الحاجة الملحة للطعام ؟ وما دمنا قد رضينا أن يحيا كل إنسان لنفسه ، فليس لك أن تلوم المرأة العاطلة ، التى لا عائل لها ولا قانون يحميها ، إذا انغمست فى الظلام تفتش عن شىء أعياها البحث عنه فى النور . إن لغة العطف والرحمة لم تعد من مصطلحات هذا الزمن . فالرجل القادر على أن يمنح العطف والرحمة فى شكل كسرة تمسك الرمق أو ثوب يستر الجسد قد طغت عليه تكاليف المدنية ، فهو يرى أن « جالوناً » من البنزين لسيارته ، أو كأساً من الشراب يذهب بصوابه ، أو حفلة ساهرة ترمز إلى عظمته ، أحق وأولى من معونة لا يطالبه بها القانون ، ولا تعترف بوجوبها الدولة !

صدقنى إذا قلت لك : إن يد المدنية الحديثة قد قلبت صفحة الزمن ، فطوت معها كل أثر للفضائل فى العهد القديم . نحن الآن أمام صفحة جديدة ، تختلف فى تعاليمها ومراميها ، وليس من معانيها شىء اسمه الرحمة !!

إن القوة الآليــة التى جعلت الثروة تتركز فى يد عدد قليل من الناس ، وتتزايد بأرقام مخيفة ، هى بعينها التى سلبت الكثرة الهائلة النزر الضئيل الذى بيدها حتى باتت تبحث عن الرغيف فلا تجده . فالزيادة المطردة فى جانب ، والنقص المستمر فى جانب ، قد أوجدا ميزاناً عجيباً تعلو فيه كفة إلى السماء ، وتهبط أخرى حتى تلاصق الأرض . وليس القبّ الذى يرفع هــذا الميزان هو توراة « موسى » ولا إنجيل « عيسى » ، ولا هو القرآن الذى بلغه « محمد » ، كما أن صنجاته ليست من المروءة أو الكرم أو الزهد ، ولكنها من نوع آخر تبيحه المدنية وتشجعه ، من الغش ، والطمع ، والمكر ، والاستغلال الشنيع الذى لا يصده حتى عرض فتاة مسكينة تتضور جوعاً !

فكيف إذن تطلب من امرأة ضعيفة جائعة محرومة من شريعة الدين وشريعة المدنية ، أن تفهم معنى الكرامة والشرف وقداسة العرض فى هذا المعترك الضال ؟ الإنسان ظل للنظام الذى يعيش فيه ، فكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟

كيف ؟ كيف ؟ لم يعجبنى دفاع نفسى عن البغى . رأيت فيه دفاعاً عاطفياً لا يجوز على العقل ، فاختلفنا ، واتفقنا أن نقدم « للرسالة » هذه القضية .

م . ودابغ

وزارة الدفاع الوطنى

إعلان

تقبــل عطاءات لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ١٢ مارس سنة ١٩٤٢ عن توريد اللحوم اللازمة للجيش والشروط بقسم المشتريات والعقود ٩٠٦٦